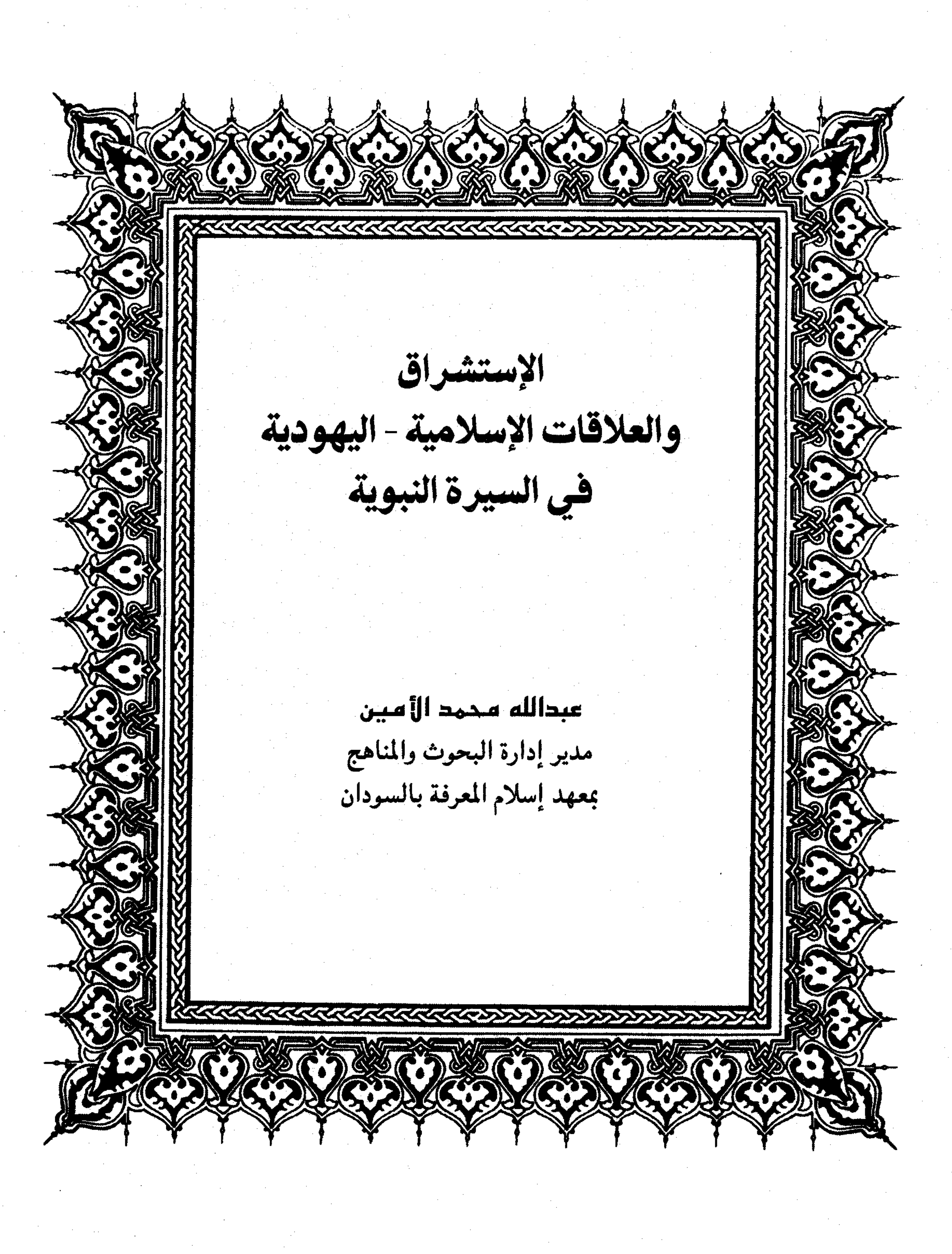


الإستشراق
والعلاقات الإسلامية - اليهودية
في السيرة النبوية

عبدالله محمد الأمين

مدير إدارة البحوث والمناهج

بمعهد إسلام المعرفة بالسودان

تمهيد:-

في الدراسات الإستشراقية ـ لا سيما في موضوع مقارنة الأديان، والعلاقات بين أهل الأديان - يحتل الإسلام ومعتنقيه الجانب الأضعف في هذه المقارنة، ذلك لأن الفكرة المبدئية والمترسخة في العقلية الإستشراقية هي أن الإسلام اقتبس أفكاره من اليهودية والنصرانية. وعلى ضوء هذه الفكرة المبدئية تجاه الإسلام تخرج البحوث الإستشراقية وهي ناقصة لا تحمل عناصر إكتمالها منذ البداية. ولأن الدين لا قيمة له في المنهج الغربي فقد جاءت النظرة الإستشراقية تجاه النبي ودعوته مجردة من عنصر الإيمان بل والتشكيك في دعوته ﷺ ذاتها.

يحاول وات وفلهاوزن وبروكلمان وهم يتحدثون عن العلاقات الإسلامية ـ اليهودية في ظل الدولة النبوية إثبات أخذ الإسلام لأفكاره وقيمه عن اليهودية والنصرانية. وهم يتتبعون هذه الأفكار والقيم وكأنهم يتتبعون سارقا ليضبطوه متلبسا بالجريمة! إن وات وفلهاوزن وبروكلمان وهم يكتبون عن تشكيل العلاقة الإسلامية ـ اليهودية، يدعون بأن النبي بذل مجهودات جبارة لأجل تكييف دينه مع الديانة اليهودية، وذلك لأجل كسب اليهود لجانبه. وهم يتشككون في المعاهدات التي عقدها النبي مع اليهود في المدينة. حتى إذا ما نشب الصراع العسكري بين المسلمين واليهود نراهم يدعون بان النوايا كانت مبيتة لإخراج اليهود من المدينة، لأن الأسباب التي أدت لإخراجهم كانت أسبابا واهية لا تتناسب مع الجرم الذي أقترفه اليهود.

في سبيل إثبات هذه الإدعاءات أعلاه استخدم وات وفلهاوزن وبروكلمان المنهج الغربي المعتاد تجاه السيرة النبوية . وهي التشكيك في نبوته ﷺ. والشك في الروايات الإسلامية الصحيحة، والقفز على الحقائق في وجودها، والافتراض حينما لا تكون للافتراض قيمة أو ضرورة، والاستنتاج المستند إلى الحقائق المغلوطة . وبمثل هذا المنهج البعيد عن الموضوعية والحياد العلمي تخرج أبحاث المستشرقين في موضوع العلاقات الإسلامية ـ اليهودية غريبة عن السيرة النبوية. وسيناقش هذا الفصل إشكالية العلاقات الإسلامية ـ اليهودية في ثلاثة مباحث هي:-

المبحث الأول :- المعاهدات بين النبي ﷺ واليهود.

المبحث الثاني :- التأثير الفكري اليهودي على النبي ﷺ ودعوته.

المبحث الثالث :- الصراع المسلح ضد اليهود.

المبحث الأول

المعاهدات بين النبي ﷺ واليهود

كان لوجوداليهود في المدينة أثره في إنتشار الإسلام فيها، إذ أنهم بشروا بمقدم النبي ﷺ وكانوا يتوعدون عرب المدينة به «أن نبيا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان سيخرج فنتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم»(١). فلما وصل الرسول ﷺ الى المدينة «كان يرغب في لقاء اليهود على أساس أنهم أهل كتاب بشر بمقدمه عساهم يدخلون في دينه، وكان اليهود يأملون في هذا اللقاء ليؤثروا عليه ويدخل في دينهم»(٢). ولكن ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾(٣).

تتحدث الروايات الإسلامية بأن النبي ﷺ حينما شرع في تأسيس دولته كتب بين أهل المدينة كتابا يعتبر دستورا للدولة الوليدة. وكان من نتائج المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وكتابة دستور المدينة أن ظهرت الأمة الإسلامية. والذي لاشك فيه أن «نواة الدولة الإسلامية» كانت خليطا من المسلمين واليهود والمشركين مما يعني بأن الأمة كانت نسيجا متشابكا ومتباينا في تركيبته العرقية والفكرية. ولقد راعى دستور دولة المدينة ذلك. لكن وات يرفض تبعية اليهود للأمة «أما أن يكون اليهود جزءاً من هذه الأمة، فهذه حجة خطيرة للقول بتاريخ سابق على بدر، كما ندهش لإغفال ثلاث قبائل كبرى. ونستطيع تفسير ذلك بافتراض أن محمدا صنف اليهود حسب القبائل العربية التي يعيشون على أراضيها، فضم النضير وقريظة الى يهود الأوس وثعلبة لأنهم كانوا يقيمون بين أوس الله وثعلبة بن عمرو بن عوف. وهناك مع ذلك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن القبائل الثلاث لا توجد في الوثيقة»(٤). فإذا تم قبول رؤية وات بأن هذه القبائل الثلاث لم توقع إتفاقا مع النبي ﷺ وبالتالي فهي ليست جزءا من الأمة فلا يمكن قبول رؤيته بخصوص اليهود الآخرين الذين وقعوا إتفاقيات مع النبي ﷺ وصاروا بالتالي جزءا من الأمة(٥). إن من الخطأ بناء رأي من «قضية جزئية» وتعميمه على «الكل»

(١) ابن القيم: زاد المعاد م١، جـ ٢، ص٥٠.
(٢) كامل سعفان: اليهود تاريخا وعقيدة، ص٣٢.
(٣) سورة البقرة، آية رقم ٨٩
(٤) Muhammed At Medina P p. 226 - 227
(٥) لمعرفة التفاصيل حول هذه القبائل اليهودية انظر: أحمد الشريف: مكة والمدينة في عهد النبي والخلفاء الراشدين ص٣٨٨ - ٣٩١. وأيضا انظر محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص١٨وما يليها.

فلقد ناقش المستشرقون قضايا اليهود «الكل» بناء على علاقات النبي ﷺ مع «الجزء» وهي القبائل الثلاثة «بنو قنيقاع - وبنو النضير - وبنو قريظة»(١).

إن المؤرخين أختلفوا في هذه القبائل الثلاث، هل صالحت النبي ﷺ أم لا؟ لا سيما وأن دستور المدينة لم يذكر هذه القبائل الثلاث رغم ثقلها السياسي في المدينة، في الوقت الذي ذكرت فيه قبائل يهودية هامشية النفوذ والتأثير في السياسة المدنية. وبينما يتحدث فلهاوزن عن اليهود ككل دون إستثناء للقبائل الثلاث ويعترف بأن «اليهود صاروا جزءاً من الأمة»(٢). ويوافقه بروكلمان في الطرح «في السنة الثانية نهض النبي بمهمة إصلاح البين وذلك عندما عقد معاهدة مسهبة بين المدنيين حفظ لنا التاريخ نصها، فأتفقت القبائل على أن تؤلف جماعة واحدة في ظل الحماية الإلهية وصار على الجماعة أن تقف صفا واحدا في وجه الأعداء الخارجيين. أما اليهود فكان عليهم أن يسهموا في نفقات الحرب دون الإشتراك بها عمليا إلا في الأحوال التي تكون فيها المدينة نفسها موضع الهجوم»(٣)، نرى وات بمنهجه الشكي وإهتمامه بإثارة الشكوك في مصداقية الروايات الإسلامية يقول «يبدو طبيعيا بأن هذه القبائل الثلاث لم تذكر في هذه الوثيقة»(٤). كما يحاول نسف الوثيقة ذاتها بقوله «ابن اسحق لا يذكر شيئا عن الطريقة التي وصلت بها الوثيقة ولا متى ولا كيف طبق هذا الدستور»(٥). ويتفق أحمد الشريف مع وجهة نظر وات ويرى بأن «ابن اسحق أنفرد بهذا النص ولم يذكر إسناده في روايته. كذلك لم يشر الى المصدر الذي أخذ عنه وإن يكن من غير المستبعد أن يكون أخذه من بعض من سبقوه ممكن كتبوا في السيرة، ولم تصل إلينا كتاباتهم. على أن هذا لا يقلل من أهمية الصحيفة ولا يطعن في صحتها، لأن أسلوبها موافق لروح العصر، كما يوافق روح التنظيم في المجتمع العربي من حيث الترابط القبلي والإعتراف بقوة العصبية وأثرها في المجتمع»(٦).

يحاول وات قطع الطريق على كل محاولة لإثبات أن هذه القبائل الثلاث قد عقدت

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه القبائل اليهودية الثلاث راجع Margoliouth: The Relations Between Arabs & Israelist, Iecturw No,3.

(٢) تاريخ الدولة العربية : ترجمة عبدالهادي أبي ريده، ص١١.

(٣) The History Of Islamic Peoples, p. 21.

(٤) Muhammed at Medina, p.227.

(٥) Ibib., P. 221.

(٦) مكة والمدينة ص٣٩٢.

معاهدات مع النبي ﷺ، لاسيما وأن هناك بندا في الوثيقة ترك الباب مفتوحا للقبائل اليهودية للدخول في الأمة «وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم»(١). إذ أن وات يذكر «إن الوثيقة في شكلها الحالي يمكن أن ترجع للزمن الذي تلا إزلة قريظه. أليس غريبا أن تحاط قضايا اليهود بكل هذا الإهتمام في الوقت الذي كانوا فيه أقلية في المدينة ؟ يمكن أن نفسر ذلك إذا افترضنا أن الوثيقة، في شكلها النهائي وضعت لتكون عهدا لليهود الذين بقوا في المدينة وإنها كانت تحتوي على جميع البنود المتعلقة بهم والموجودة في صور دستور المدينة القديمة»(٢).

يهدف وات من خلال هذا الاستنتاج للتأكد على أن هذه القبائل الثلاث لم تدخل في معاهدات مع النبي ﷺ، وبالتالي فإن حرب النبي ﷺ لها إنما هي حرب عدوانية، لأن النبي عيله السلام إنما حاربها لنقضها العهد الذي بينه وبينها وهي لم تعاهده. وهذا ما دفع مستشرقا لاحقا للقول «كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج من الساعة الأولى لمجاورتهم في يثرب، حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم وأطماعهم»(٣). وهذا ما رمى إليه وات. لكن آراء وات وإستنتاجاته تحمل داخل أحشائها كثيرا من التناقضات، فاذا كانت الوثيقة في شكلها النهائي كتبت بعد إزالة قريظة لتكون عهد للذين بقوا من اليهود في المدينة، وأنها تحتوي على البنود الموجودة في دستور المدينة القديم، فلمن كتب دستور المدينة القديم ومن بقى من اليهود بعد إزالة قريظة؟. كما نراه يتخبط فمرة يذكر بأن القبائل الثلاث لا توجد في الدستور. وحينا يفسر عدم ذكرها بأن النبي ﷺ صنف القبائل اليهودية حسب القبائل العربية التي يعيشون بينها ومرة ثالثة يذكر بأن معاهدات النبي مع اليهود تمت بعد إزالة قريظة دون أن يذكر مصادره.

تعلل المصادر الإسلامية عدم ذكر هذه القبائل الثلاث في دستور المدينة بأن «القبائل الثلاث أعتزت بنفسها. وبقيت محتفظة بشخصيتها ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بندا عاما لدخول اليهود في الدولة إحتمالا لما قد يحدث من دخول هذه القبائل في النظام الجديد»(٤). إن عدم ذكر هذه القبائل الثلاث في نص دستور المدينة لا ينفي

(١) حميدالله : مجموعة الوثائق السياسية، ص١٧.

(٢) Op. cit., 227

(٣) ولفنسون: اليهود في بلاد العرب، ص١٣٥

(٤) إحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٩٤

عقدها لمعاهدات مع النبي ﷺ فالروايات الإسلامية جاءت تترى لتؤكد بأن هذه القبائل قد عقدت معاهدات مع النبي ﷺ. كل قبيلة على حدة. فإذا أخذنا قبيلة بني قينقاع البادئة بالعدوان فيمكن أن نأخذ رواية واحدة تكفي للرد على شبهة وات فحينما دخل سيدنا أبوبكر بيت المدارس ودار الحوار بينه وبين فنحاص القينقاعي قال فنحاص «إن الله فقير» ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾[1]. فغضب أبوبكر وقال «والله لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك»[2]. فلو لم يكن هناك عقد بين النبي والقينقاعيين فلم يقول أبوبكر ما قال: وذكر ابن اسحق «إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله»[3]. مما يؤكد على وجود هذه المعاهدة وعدم وجود وثيقة هذه المعاهدة لا ينفيها. كما أن الطبري المفسر المعروف يذكر أنه بعد نزول الآية ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء ﴾ قال إني أخاف من بني قينقاع، قال عروة فسار رسول الله إليهم بهذه الآية»[4]. فالخيانة لا تكون إلا للرسول ﷺ والنبذ لا يكون إلا للعهد.

عن عهد بني النضير مع النبي ﷺ فإن ابن سعد يروي رواية مجملة ـ وإن كانت بملابساتها تخص بني النضير ـ عن إتفاق اليهود مع النبي ﷺ بعد مقتل كعب بن الأشرف في السنة الثالثة للهجرة «بعد مقتله أصبح اليهود مذعورين فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا قتل سيد نا غيلة فذكرهم النبي ﷺ صنيعة وما كان يحض عليهم ويحرض في قتالهم ثم دعاهم الى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحا أحسبه قال وكان ذلك الكتاب مع علي رضي الله عنه»[5]. ولقد كان كعب ينتمي الى قبيلة بني النضير[6]. قال كعب بن مالك يذكر قتل كعب بن الأشرف:-

فغودر منهم كعب صريعا
فذلك بعد مصرعه النضير[7]

وإن كان نص هذه المعاهدة التي عقدت بين النبي ﷺ وبين النضير لم يرو[8].

(١) سورة آل عمران، آية رقم ١٨١
(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، م١، ص٢٨٥
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق السقا وآخرون، جـ٣، ص٥١. البيهقي: دلائل النبوة جـ٢، ص٤٤١. الطبري: الرسل والملوك، تحقيق أبوالفضل، جـ٢ ص٤٧٩. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م٢، ص١٣٧. ابن سيد الناس م١، ص٣٨٦
(٤) الطبري: المصدر السابق . جـ٢ ص٤٨٠. وسورة الأنفال، آية رقم ٥٨
(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، جـ٢، ص٣٤
(٦) ابن خلدون: العبر، م٢، قسم ٤، ص٧٥٧
(٧) ابن هشام: السيرة النبوية:تحقيق السقا، جـ٣، ص٦٠-٦١. والسهيلي:الروض الأنف، جـ٦، ص٢١٨
(٨) حميدالله: مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٧

أما عن معاهدة قبيلة قريظة مع النبي ﷺ فإن هناك إشارات في كتب السيرة النبوية تؤكد على صحة هذه المعاهدة. فحينما كان الصراع دائرا بين النبي ﷺ وبني النضير فإن عبدالله بن أبي «وعدهم بأن العرب وبنو قريظة سينصرونهم فبلغ ذلك كعب بن أسد صاحب عهد بني قريظة فقال لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي»[١]. ويروي وات نفسه رواية عن الواقدي «إنه حين قدوم محمد الى المدينة عقد جميع اليهود إتفاقا ويقول أحد بنوده إنه يجب على اليهود ألا يؤيدوا عدوا لمحمد ويقول في مكان آخر انه كان على اليهود بموجب هذا الاتفاق ان لا يكونوا معه أو ضده ووقع الوثيقة كعب بن أسد عن قبيلة قريظة وظلت هذه الوثيقة في حوزته حتى حصار المدينة حين مزقت»[٢].

حينما بدأت الأحزاب في محاصرة المدينة قابل حيى بن أخطب ـ أحد الزعماء الذين قاموا بتأليب الأحزاب ـ كعب بن أسد زعيم قريظة وصاحب عقد قريظة وعهدهم «وكان قد وادع النبي ﷺ على قومه وعاقده وعاهده على ذلك.. فقال ويحك يا حيى إني قد عاهدت محمد فلست بناقض ما بيني وبينه. ولم أر منه إلا وفاء وصدقا فمازال حيى يفتله في الذروة والقارب حتى نقض كعب عهده وبرئ مما كان بينه وبين النبي ﷺ»[٣]. وقامت قريظة بالتآمر مع الأحزاب، وحينما أرسل النبي ﷺ مبعوثيه للتحري من نقض قريظة للعهد «وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم»[٤]. وقالوا لمبعوثي النبي ﷺ «لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد»[٥]. لكن وات يصر على رفض هذه الروايات فرواية الواقدي التي نقلناها منه، يرى وات بأن الواقدي نقلها عن محمد حفيد للشاعر كعب بن مالك من بني سلمة ومحمد بن كعب هو ابن مسلم لأحد أفراد قريظة فلا شيء يحملنا على الاعتقاد بأنها وثيقة حقيقية لأن سلمة معادية لليهود ولما كان المسلمون غالبا حانقين على الجماعة التي أنفصلوا عنها فإن لهذين الشخصين أسبابا تدفعهما لتشويه سمعة بني قريظة[٦].

ليس من المعقول أن تدفع الأحقاد صحابيا جليلا ومعاصرا للأحداث (كعب بن

(١) الطبري : الرسل والملوك ، جـ ٢، ص٥٥٣

(٢) Muhammad at Medina, p.196

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٣، تحقيق السقا وآخرون، ص٢٣٢

(٤) نفس المكان

(٥) الطبري: مرجع سابق، ص٥٧٢. وأنظر ابن حزم: جوامع السيرة، تحقيق احسان عباس وناصرالدين الأسد، ص١٨٨

(٦) Muhammad at Medina, p.1 6

مـالك) للكذب. والأصل عند المحدثين هو عدالة الصحابي. كما أن الروايات الآنفة الذكر لم يعترض عليها مؤرخ مسلم حتى نرى سببا واحدا يدفعنا لقبول رؤية وات . إن الشواهد السابقة وإن لم تذكر نص تلك المعاهدات التي وقعتها القبائل اليهودية الثلاث، إلا أن ذلك لا ينفي عقدها لمعاهدات مع النبي ﷺ. وأمام هذه الشواهد تتهاوى آراء وات الهادفة الى تبرئة هذه القبائل اليهودية وإلقاء تبعة الصراع اليهودي - الإسلامي على عاتق النبي ﷺ.

المبحث الثاني

التأثير الفكري اليهودي على النبي ﷺ ودعوته

في الحديث عن التأثير الفكري اليهودي على النبي ﷺ والمؤثرات اليهودية في الإسلام يواجه الباحث بزخم هائل من الأكاذيب والإدعاءات الاستشراقية، والتي تعكس جهلا فاضحا بالإسلام، أو تجاهلا. إذ أن المستشرق قد يكون عالما بالإسلام شريعة وعقيدة ولكنه ينحاز عن جادة البحث العلمي وموضوعيته نتيجة للمؤثرات الخارجية كالصراع الإسلامي - المسيحي، والفترة الإستعمارية للعالم الإسلامي، وإنتهاءا بالصراع العربي - الإسرائيلي حول فلسطين. ولاشك في أن المؤثرات تلعب دورها في تشكيل العقلية الإستشراقية، مما يؤدي لانحراف هذه العقلية. وسلسلة إنحرافات العقلية الإستشراقية لا تنتهي ذلك لأن المستشرقين يأخذون عن بعضهم بعضا. وفي الوقت الذي يكون فيه لامنس وكايتاني حجة في السيرة بالنسبة للمستشرق المعاصر نرى أن نفس هذا المستشرق يرد روايات عروة وابن اسحق وغيرهم من الرواة القدامى. ولأن جذور الكتابات الإستشراقية قامت على أرضية سبخة فإن النتاج يكون دوما رديئا. لا فرق بين مستشرق القرن العاشر أو العشرين.

يصدم الباحث في السيرة النبوية منذ البداية وهو يقرأ «إنه من البديهي أن محمدا قبل الهجرة وبعدها كان يميل لصياغة ديانته على شكل الديانة اليهودية وتشجيع أتباعه في المدينة على الإحتفاظ بالطقوس اليهودية التي تبنوها»(١). ويواصل وات «ويبدو أن محمدا بعد أن أصبح من الممكن رحيله الى المدينة أراد أن يصوغ الإسلام على شاكلة الدين الأقدم "It Seemed Likely thet he go to Medine, Muhammad appearsto have tried to model lslam on the older religion"(2). ويحدثنا

(١) Muhammad at Medina, p.199

(٢) Ibid., p.198

بروكلمان عن جهل النبي «والواقع أنهم (اليهود) على الرغم مما تم لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائية فقد كانوا يفوقون النبي الأمي في المعلومات وفي حدة الإدراك . فالفجوات المختلفة التي تكشف عنها علمه بالعهد القديم والتي كان قد تركها عارية في السور المكية لم يعد من الممكن أن تظل خافية عليهم ولكن إشارتهم الساخرة الى هذه الفجوات كانت أعجز من أن تزعزع إيمانه بصحة ما يوحى إليه بل إن معارضة اليهود حملته الى أن يستنتج أنه ضلوا عن الطريق الصحيح وأنهم حرفوا الكتاب المقدس الذي أعتقد هو نفسه بأنه منزل من عند الله»[1]. فلا غرو في أن هذا النبي الذي يتصف بكل هذا الجهل. .هذا النبي الذي صنعه وهم بروكلمان، لا غرو في أن يكون عالمه الفكري «ليس من إبداعه الخاص إلا الى حد صغير فقد أنبثق في الدرجة الاولى عن اليهودية فكيفه محمد تكييفا بارعا وفقا لحاجات شعبه الدينية وذلك أرتفع بهم الى مستوى أعلى من الحساسية الخلقية والإيمان الفطري»[2]. ولنلاحظ بأن المستشرقين يصفون اليهود والنصارى في الجزيرة بأنهم كانوا على علم هزيل فإذا أخذ عنهم النبي ﷺ فلاشك بأنه سيكون أجهل وهذا ما يريد المستشرقون إثباته. «وليس من شك في أن معرفته بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية الى أبعد الحدود وحافلة بالأخطاء وقد يكون مدينا ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي. ولكنه مدين بذلك دين أكبر الى المعلمين الذين عرفوه بإنجيل الطفولة وبحديث أهل الكهف السبعة وحديث الإسكندر وغيرها من الكتب التي تتواتر في كتب العصر الوسيط.. في هذه القصص نجد أسلوبه ينزع الى أن يكون أكثر إسهابا وأقل توقدا كما نجد أنه كان يوشح هذه القصص بمناقشات خطابية تدور حول إثبات وجود الله بمختلف الدلائل الطبيعية»[3]. هذا هو رأي بروكلمان الذي كتبه «تاريخ الأدب العربي» إذ من المفترض أن يكون عالما بأسرار اللغة العربية ليستطيع إستيعاب الخطاب القرآني.

إن بروكلمان لا يحدثنا عن أولئك المعلمين الذين علموا النبي ﷺ إنجيل الطفولة. إنما يخبرنا وات عن معلم النبي الأول ورقة «كان محمد قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة وقد تأثرت التعاليم الإسلامية كثيرا بأفكار ورقة وهذا يعود بنا الى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي

(١) History of the Islamic peoples p22

وعن علم اليهود الهزيل أنظر ولفنسون: اليهود في بلاد العرب، ص١٢

(٢) History of the Islamic peoples, p.36

(٣) Ibid., p.p. 16-17

"Thet Muhammed had frequent communication with Waraqah السـابق لـه. at an earlier date, and learnt much of a genaral character. Later lslamic conception may have been largely by Waraqahs l deas,e.g. of the relation of Muhammad's revelation to previous revelation"[1].

إن رؤية وات وبروكلمان تحاول جاهدة نفي نبوة النبي ﷺ. وإثارة الشكوك في الوحي الإلهي ذلك لأن النبي ﷺ في رأيهما كان يعمل على صياغة ديانة على شاكلة الديانة اليهودية، فالذين - إذن - لم يأته من الله تعالى ولم يكن وحيا يوحى. وحتى هذه الديانة التي صاغها النبي إنما هي ديانة بدائية لأن من أخذ منهم كانوا على علم هزيل كما أوضح بروكلمان.

إن خطأ المستشرقين الأساسي يتمثل في نظرتهم القاصرة والمحدودة في دراسة الأديان فهم يدرسونها كديانات منفصلة عن بعضها البعض لا يربط بينها رابط. وهذا في حد ذاته من الأخطاء المنهجية، ذلك لأن جميع الأديان السماوية تتلاقى في الكثير من تعاليمها. لاسيما في مسألة التوحيد فتاريخ الإيمان تاريخ واحد «فكل ما جاءت به الرسل من عند الله فهو متحد الأصل، منه ما يتعلق بمصلحة ثابتة لا تخضع لظروف الزمان والمكان كوجوب الإيمان والصلاة والعدل والصدق وتحريم الكفر ونحو ذلك ومنه ما يتعلق بمصلحة تخضع لظروف الزمان والمكان وإختلاف الأحوال، فهذه المصلحة تختلف بإختلاف الأجيال فيعتريها التبديل والتغيير كما هو معلوم عند الأصوليين في باب النسخ فأصل الدين واحد وإنما الإختلاف في الشرائع والمناهج»[٢]. وقال ابن القيم «الشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة مركوز حسنها في العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت من الحكمة والمصلحة والرحمة»[٣]. وهذه الأفكار التي يروجها المستشرقون في مسألة إنفصال الأديان عن بعضها، هي نفس المسألة التي أثارها النصارى واليهود أيام النبي ﷺ. ووصف الله سبحانه وتعالى هذا الموقف ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[٤].

إن النبي ﷺ حينما إختارته العناية الإلهية لتبليغ الرسالة الخاتمة جاء بالعقيدة الصحيحة تلك العقيدة التي بشر بها من سبقوه من الأنبياء بما فيهم سيدنا موسى

(١) Muhammed at amecca, p.p. 51-52.

(٢) يوسف العالم: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ص٢٣

(٣) مفتاح دار السعادة:٢ - ٢ نقلا عن المصدر السابق، نفس الصفحة

(٤) سورة البقرة، آية وقم ١٣٥

وسيدنا عيسى عليهما السلام*، ذلك لأن منبع الأديان واحد كما ذكرنا، وهو الله سبحانه وتعالى. فاذا تلاقت الأفكار الإسلامية بالأفكار اليهودية أو النصرانية فذلك لا يعني بأن النبي ﷺ سارق أفكار - كما تصوره هذه الدراسات الإستشراقية - وإنما تبنى الإسلام الأفكار السابقة بما يتماشى مع روح الحاضر والمستقبل. ولتكون رسالته ﷺ هي الخاتمة بعد إنحراف البشرية عن منهج الله تعالى بما فيهم اليهود والنصارى ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾[(١)]. ولقد وصل الإنحراف العقائدي باليهود الى الدرجة التي دفعتهم الى تفضيل الوثنية على عقيدة التوحيد ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾[(٢)].

إمعانا في إنكار نبوته ﷺ يكتب بروكلمان عبارات «حملته أن يستنتج على أنهم ضلوا» و «إعتقد هو نفسه». إن مثل هذه التعابير ذات المردود العلماني تلغي عملية الوحي الذي كان ينزل على النبي عليه السلام. وإذا ما تم إلغاء الوحي أو الغيب من رسالة النبي ﷺ يغدو الإسلام مجرد صياغة أرضية «كيفها محمد تكييفا بارعا وفق حاجات شعبه ليرتفع بهم الى مستوى أعلى من الإيمان الفطري»[(٣)]. وحينما يتحدث بروكلمان عن جهل النبي ﷺ بالعهد القديم والفجوات التي تركها عارية في السور المكية فللباحث ان يتساءل، ما قيمة أن يتحدث النبي ﷺ - الذي لم يكن ينطق عن الهوى إنما وحي يوحى اليه من الله سبحانه وتعالى - عن العهد القديم وتعاليمه في الفترة المكية؟ وهي فترة كان الخطاب الدعوي موجها للوثنيين العرب في مكة وما حولها. ولم تكن من فائدة ترجى من مخاطبة هؤلاء الوثنيين العرب بأخبار قد لا تضيف لهم سوى المزيد من البلبلة الفكرية.

ولقد كان مسار الدعوة النبوية في مكة محددا في التركيز على مسألة التوحيد، إذ كان لابد من حسم هذه المسألة إذ تعتبر الفكرة المحورية التي دارت عليها جميع الرسالات السماوية. كما أنها كانت مشكلة الساعة في مكة وما حولها. وليس من

---

* قال تعالى ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ سورة الأنعام آية ٩٠. وقال ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ الشورى آية:١٣. وكان النبي بشارة من سبقوه من الأنبياء﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدي اسمه أحمد﴾. سورة الصف، آية رقم٦. وقال تعالى﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ سورة الأعراف آية:١٥٧

(١) سورة المائدة ، آية رقم ٦٨

(٢) سور النساء، آية رقم ٥١

History of the Islamic Peoples, p.36(٣)

المعقول أن تدور في هذا الوقت أحاديث عن أخبار العهد القديم، إلا في حدود تخدم قضية التوحيد. وإنما دارت هذه الأحاديث بإستفاضة في المدينة وذلك لإحتكاك النبي ﷺ باليهود. وجاءت إجابة على تساؤلات أو إشكاليات أثارها اليهود في مرحلة الجدل السابقة لبدر أو خلال سنوات الصراع العسكري بين الجانبي الإسلامي واليهودي[1]. وهناك نقطة يجدر بنا إضافتها وهي «إن قصص القرآن للعبرة أولا وللتاريخ ثانيا، من أجل ذلك لم يلجأ القرآن الى تفصيل السرد التاريخي ولكنه رمى الى العظة من الحوادث فأوجز وأجمل وضرب الأمثال فقط ليحمل البشر على الإعتبار بما أصاب أسلافهم الأقدمين وأما ما يظنه الكتاب الغربيون خطأ في فهم الإسلام لمادة الإنجيل فراجع الى أن القرآن قد تضمن آراء طوائف مسيحية إضطدها النصارى»[2].

يكتب وات وبروكلمان عن الأثر اليهودي والنصراني في العبادات الإسلامية كالصلاة والصيام والإتجاه نحو القدس في الصلاة، والمعتقدات عن اليوم الآخر، وتحريم بعض الأطعمة وكل ذلك يهدف الى إثبات ما أخذه الإسلام من اليهودية والنصرانية، ولنفصل هذه التشريعات. فعن التأثير اليهودي في الصلاة يكتب وات «فرضت صلاة الظهر مجاراة للعادات اليهودية ويبدون أنه لم يوجد في مكة سوى صلاة الصبح والمغرب ماعدا القيام في الليل ولكن القرآن يأمر في المدينة «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» "Similarly in accordance with jew practice, midday worship was instituted...."[3].

ولكي يهدم وات ركنا أساسيا من أركان الإسلام وهو الصلاة فانه يدعي «ومن الممكن أنه خلال سنوات النبي الأخيرة لم يحترم فرض الصلوات الخمس بأنتظام فقد حذفت صلاة العشاء العزيزة على قلوب المكيين من أتباع محمد في المدينة" The night vigil popular with his followers at Mecca abrogated at Medina".

وتدل جملة في القرآن إنه كان يجب تأدية ثلاث صلوات في اليوم ولا شيء يطمأن إليه عدا ذلك "Beyond thet nothing certain can said"[4].

يذكر بروكلمان «كان واجب المسلمين الرئيسي الذي يعلنون بواسطته إنتمائهم

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الجدل راجع سورة البقرة، آل عمران، النساء، المائدة

(٢) أنظر عن فروخ : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة منير فارس ومنير البعلبكي ، ص٣٩ الهامش

(٣) Muhammed at Medina, p .199 ويقصد وات بصلوات الفترة المكية {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل} سورة هود آية ١١٤. وصلوات الفترة المدنية{حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى} سورة البقرة، آية٢٣٨

(٤) Muhammed to Medina, p .305

للجماعة الصلاة مرتين أول الأمر ثم ثلاث مرات وأخيرا خمس مرات في اليوم الواحد وكانت الصلوات يقدم لها منذ البدء بالوضوء الذي كان مألوفا أيضا عند الفرق النصرانية»(١). ثم يتناقض «وبينما كان المؤمنون لا يصلون في مكة سوى مرتين في اليوم أدخل في المدينة على غرار اليهودية صلاة ثالثة عند الظهر كذلك جعل يوم الجمعة يوم صلاة عامة على غرار يوم السبت اليهودي»(٢).

تذكر الرواية الإسلامية خلاف ذلك، فابن سيد الناس يذكر «فرض الله في أول الإسلام ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى ثم فرض الخمس ليلة المعراج»(٣).

ويذكر الطبري «ثم كان فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج»(٤). ويذكر البيهقي عن النبي ﷺ وهو يتحدث عن الإسراء والمعراج «فما زلت أختلف بين ربي وموسى حتى رجعت بخمس صلوات كل يوم »(٥).

وحتى نقطع الشك باليقين فإننا نورد كيفية هذه الصلوات «إن نبي الله ﷺ لما جاء بهن الى قومه يعني الصلوات خلى عنهم حتى إذا زالت الشمس عن بطن السماء نودي فيهم الصلاة جامعة ففزعوا الى ذلك وأجتمعوا فصلى بهم رسول الله ﷺ الظهر أربع ركعات لا يقرأ فيهن علانية. رسول الله بين يدي الناس وجبريل بين يدي رسول الله يقتدي الناس برسول الله ويقتدي رسول الله بجبريل ثم خلا عنهم حتى تصويت الشمس وهي بيضاء نقية نودى بهم الصلاة جامعة فأجتمعوا لذلك فصلى بهم رسول الله العصر أربع ركعات دون صلاة الظهر.. ثم خلا عنهم حتى إذا غابت الشمس نودى فيهم الصلاة جامعة فصلى بهم المغرب ثلاث ركعات في ركعتين علانية وركعة لا يقرأ فيها علانية.. ثم خلا عنهم حتى إذا غاب الشفق وأبطأ العشاء نودى فيهم الصلاة جامعة فإجتمعوا لذلك فصلى بهم رسول الله العشاء أربع ركعات يقرأ في ركعتين علانية ولا يقرأ في ركعتين علانية.. ثم بات الناس ولا يدرون أيزدادون على ذلك أم لا ؟ حتى إذا طلع الفجر نودى فيهم الصلاة جامعة فأجتمعوا لذلك فصلى بهم رسول الله ركعتين علانية ويطيل فيهم القراءة»(٦). وإن كان المسعودي يرى أن رسول الله ﷺ «خوطب بفرض

---

(١) History of the Islamic Peoples, p.16

(٢) Ibid, pp. 21 - 22

(٣) ابن سيد الناس: عيون الأثر، م١، ص١٢١

(٤) تاريخ الطبري: تحقيق أبوالفضل ، جـ٢، ص٣٠٩. وأنظر صحيح البخاري، المطبعة الأميرية، جـ٥، ص٥٤

(٥) دلائل النبوة، جـ٢، ص١٢٥ - ١٢٦

(٦)البيهقي : دلائل النبوة جـ٢، ص١٥٢ - ١٥٣

الصلوات ركعتين ركعتين ثم أمر بإتمامها بعد ذلك وأقرت ركعتين في السفر وزيد في صلاة الحضر»[1].

إن الروايات الإسلامية جاءت متواترة ومؤكدة على أن الله سبحانه وتعالى فرض الصلوات الخمس بعد الإسراء والمعراج في الفترة المكية فكيف تفرض صلاة الظهر في المدينة مجاراة للعادات اليهودية؟ وحينما يذكر وات بأنه لا شيء يطمأن إليه عدا الصلوات الثلاث فذلك لأن كايتاني أقر ذلك فأحالنا وات إليه. لكن كيف عرف وات بأن صلاة العشاء العزيزة على قلوب المكيين - في رأيه - قد تم حذفها؟ إن وات يحيلنا الى الآية رقم ٢٠ في السورة رقم ٧٣ وهي سورة المزمل، ونص الآية هو ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فأقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فأقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[2]. فهل في هذه الآية حذف لصلاة العشاء؟.

إن صلاة القيام بالليل إفترضت في الأساس على النبي ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو أنقص منه قليلا أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾[3].وكانت طائفة من المؤمنين تؤديها معه وكان ذلك قبل فرض الصلوات الخمس. وإستمر الحال في تأدية هذه الصلاة حتى إبتداء الفترة المدنية. وقد كان قصد الشارع من ذلك هو الإعداد والتربية الروحية للمسلمين وتزكية نفوسهم إعدادا للمرحلة المقبلة التي تميزت بأنها مرحلة جهاد في سبيل نشر الدين. ومصاعب ومشاق هذه المرحلة تقتضي التخفيف ورفع الحرج فكان أن أسقط الشارع قيام الليل. قال ابن عباس «سقط عن أصحاب رسول الله قيام الليل وصار تطوعا وبقى ذلك فرضا على رسول الله»[4] لأن هذه الصلاة قد أدت دورها في الإعداد الروحي ولأن الاستمرار في أدائها قد يحول دون نشر الدين وتمكينه وهو المقصد الأهم الذي لأجله بعثت الرسل والأنبياء. ولقد أوضح سبحانه وتعالى الحكمة من هذا التخفيف.

إن استشهاد وات بهذه الآية للتدليل على حذف صلاة العشاء خطأ ذلك لأن الصلوات الخمس وكيفيتها كانت معلومة منذ الفترة المكية وصلاة القيام بالليل لم تكن

(١) المسعودي : مروج الذهب، جـ٢. ص٢٧٦

(٢) سورة المزمل آية رقم ٢٠

(٣) سورة المزمل : آيات ١ - ٤

(٤) تفسير الطبري: جـ ٢٩، ص٨، نقلا عن الصابوني : صفوة التفاسير، م٣، ص٤٦٩

داخلة في نطاقها وكانت بالنسبة للمسلمين من قبيل التطوع والدليل هو عدم أداء الجميع لها كما في الآية «وطائفة من الذين معك».

يذكر وات عن صلاة الجمعة «وقد طلب مصعب بن عمير مبعوث النبي في المدينة قبل الهجرة بعام أن يسمح له بجمع المؤمنين فأجيب بأنه يمكنه أن يجمعهم شريطة أن يحترم اليوم الذي يقضيه اليهود في إعداد السبت (أي يوم الجمعة) وهكذا يكون لإقامة صلاة الجمعة أصل عبري "Was some how connected with judaism" ويبدو أن محمدا نفسه لم يمارس هذه الصلاة حتى الجمعة الأولى التي قضاها في المدينة»(١).

وأحالنا وات الى ابن سعد فيما يتعلق باحترام يوم السبت اليهودي. ولكن رواية ابن سعد لا تحدثنا عن هذا الاحترام «فكتب مصعب الى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم فأذن له وكتب اليه أنظر الى اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسبتهم فإذا زالت الشمس فأزدلف الى الله فيه ركعتين وأخطب فيهم فجمع بهم مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة وهم اثنا عشر رجلا فهو أول من جمع في الإسلام جمعة»(٢).

فليس من هذا الأمر النبوي دعوة لإحترام السبت اليهودي ولا يبدو منطقيا أن يستنتج وات من إحترام السبت أصلا عبريا لصلاة الجمعة. إن فكرة الجمعة كما يقول عمر فروخ «مخالفة تمام المخالفة لما عند النصارى واليهود معا. إنها ظاهرة اجتماعية، لا دينية ولذلك لا تقام صلاة الجمعة إلا في المصر (البلد) وإلا لم تجب الجمعة بينما اليهود يسبتون عشية السبت الى مساء السبت لا يعملون عملا»(٣). بينما في يوم الجمعة لا تتوقف الأعمال إلا لأداء هذه الصلاة ﴿ فإذا قضيت الصلاة فأنتشروا في الأرض وأبتغوا من فضل الله ﴾(٤). فكيف يكون لصلاة الجمعة أصلا يهوديا؟ وما يثيره وات من شبهات حول عدم إقامة النبي عليه السلام لصلاة الجمعة في مكة فإن هذا يرجع الى عدم توافر شروط إقامة الجمعة، إذ أن مكة كانت دار كفر فاحتمال فتنة المسلمين وارد. لذلك نلاحظ ان صلاة الجمعة أقيمت في المدينة قبل قدوم النبي إذ أن هامش الحرية الدينية في المدينة كان أوسع، حتى إذا ما وصل النبي الى المدينة فإنه «صلى الجمعة في دار بين سالم»(٥).

وخلاصة آراء وات في موضوع الصلاة أنها كانت تقوم على مجموعة من الحركات

(١) Muhammed at Medina, p .198

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص١١٨

(٣) عمر فروخ: تاريخ الشعوب الإسلامية (مترجم)، الهامش، ص٤٦

(٤) سورة الجمعة: آية رقم ١٠

(٥) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص٢٧٩

والأقوال «غير أن الحركات كانت مهمة والأقوال ثانوية "... but the physical acts were primary and the works secondary"[1] .

وبهذا يتم تجريد الصلاة من أهم خصائصها التعبدية وتغدو مجرد رياضة بدنية. وقد جاء في حديث عبادة بن الصامت «ان رسول الله ﷺ قال لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[٢]. كما أن القرآن ذاته تحدث عن القراءة في الصلاة ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾[٣]، مما يدل على أهمية الأقوال.

يدعي وات «وهناك تعليم آخر سار فيه محمد على هدى الطقوس اليهودية حين كان لايزال في مكة وهو التوجه نحو القدس للصلاة.. ويمكن أن يكون محمد نفسه في هذا الوقت لم يكن له قبلة "Muhammad himself may have had no qiblah at the time" ولكنه كان يرغب أن يجعل دينه من هذه الناحية على غرار دين اليهود»[٤]. إن وات يتغاضى عن كل ما ذكرته الروايات الإسلامية المتواترة في أمر صلاته عليه السلام نحو بيت المقدس حتى الشهر السادس عشر أو السابع عشر من هجرته عليه السلام الى المدينة. ولم تذكر الروايات الاسلامية أحدا شذ عن هذا الإجماع في التوجه نحو القدس أثناء الصلاة عدا البراء بن معرور الذي كان يتوجه نحو الكعبة. ويذكر البيهقي بأن الرسول ﷺ نصحه بالتوجه نحو القدس «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها فرجع الى قبلة رسول الله»[٥]. كما أن سياق الآية ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾[٦]، يدل على أنه كانت للمسلمين قبلة يتجهون إليها في صلاتهم. فكيف يدعى وات بأنه لم تكن للنبي ﷺ قبلة يتجه إليها ؟!

يذكر وات «تظاهر محمد الصبر "Patient" بعض الوقت ثم غير موقفه فجأة فبينما كن يصلي ذات يوم في حي بني سلمة نزل عليه الوحي يأمره بأن يتوجه نحو الكعبة وليس سوريا.. ونجد من ناحية أخرى أن الآيات المتعلقة بتغيير القبلة (قرآن:٢ , ١٣٦- ١٤٢ و١٤٧- ١٥٢) تختلف في تأليفها وأنها نزلت في أوقات مختلفة»[٧]. ألا يبدو وات متناقضا ففي حين يذكر بأن النبي ﷺ لم تكن له قبلة يأتي هنا ليذكر بأن الوحي أمره بأن يتوجه الى الكعبة بدلا من سوريا ؟!.

---

(١) Muhammed at Medina, p 305

(٢) صحيح البخاري : المطبعة الأميرية، جـ١، ص١٤٧ - ١٤٨، وأنظر باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت ، ص١٤٧ - ١٥٢

(٣) سورة الإسراء :آية رقم ١١٠

(٤) Op. Cit., P. 199

(٥) دلائل النبوة، جـ٢، ص١٨٣ - ١٨٤

(٦) سورة البقرة: آية رقم ١٤٢

(٧) Muhammed at Medina, p 202

إن النبي ﷺ لم يغير موقفه فجأة فالآية ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها.. ﴾[1]. تدل على حالته النفسية عليه السلام «وددت أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود»[2]. أما رأي وات بأن الآيات المتعلقة بتغيير القبلة تختلف في تأليفها وأنها نزلت في أوقات مختلفة فمرد ذلك يرجع الى أن وات قام بحشر الآيات ١٣٦- ١٤١ و١٥١- ١٥٢ مع الآيات من ١٤٢- ١٥٠ الدالة على تحويل القبلة وتبرير هذا التحويل. وهي التي تبتدئ بالآية ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها.. ﴾ وتنتهي بالآية ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[3]. يريد وات إذاً إثارة الشك ليس إلا. «وكان تحويل القبلة منحة عظيمة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين فأما المسلمون فقالوا سمعنا وأطعنا وأما المشركون فقالوا كما رجع الى قبلتنا يوشك أن يرجع الى ديننا وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله ولو كان نبيا لكان يصلي الى قبلة الأنبياء»[4]. وقال تعالى ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله.. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾[5]. وقد أوضح سبحانه وتعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾[6]. وبالتالي فهو أولى بالاتجاه نحوه في الصلاة.

عن صوم رمضان فإن بروكلمان يرى «ولسنا نعرف حتى الآن ما إذا كان محمد قد أقتبس هذه الفريضة عن إحدى الفرق الغنوصية* أم عن المانيين** الذين نفذ مبشروهم

(١) سورة البقرة : آية رقم ١٤٤
(٢) ابن القيم : زاد المعاد، م١، جـ ٢، ص٥٧
(٣) أنظر سورة البقرة الآيات من ١٣٦ - ١٤١ و ١٥١ - ١٥٢ وقارنها بالآيات من ١٤٢ - ١٥٠
(٤) ابن القيم : زاد المعاد، م١، جـ٢، ص٥٧
(٥) سورة البقرة: آيات ١٤٣ - ١٤٤. وأنظر سورة آل عمران، آيات ٩٦ - ٩٧
(٦) سورة آل عمران : آية ٩٦

* الغنوصية:

حركة فسلفية ودينية في العصر الهيللني وأساسها إن الخلاص يتم بالمعرفة أكثر مما يتم بالأعمال الخيرة وتأثر بالغنوصيين بعض الفرق اليهودية مثل الأسينين كما إنها أثرت في المسيحية فحملتها على تحديد العقيدة ومحاربة الهرطقة إلا أن أمرها إنتهى بإدماجها في المانوية» أنظر محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة ص ١٢٥٨

** المانيين:

ينتسبون الى ماني وهو مصلح إيراني ظهر في القرن الثالث. وأعلن النبوة سنة ٢٤٢م. حكم عليه بالموت. إنتشر مذهب المانوية في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وآسيا. تأثر بالوذية والغنوصية وإتسمت بتعاليم الزرادشتية متخذة النضال أساسها للصراع بين الخير والشر . قاومتها النصرانية بعنف حتى قضت عليها . أنظر محمد شفيق غربال: الموسوعة، ص١٦٣٦

الى بلاد العرب.أيضا فقد كان لا يعرف شيئا عن الحرانيين*** في العراق الذين كانوا يصومون كذلك شهر مارس تمجيدا للقمر»[1]. وعن صوم العاشوراء «فشرع صوم العاشوراء على غرار الصوم اليهودي»[2]. وأما وات فإنه يذكر «ويحوم شك أقل حول صيام عاشوراء الذي يقع في يوم عيد الكفارة اليهودي»[3].إذا كان النبي ﷺ كما يراه بروكلمان «جاهل وهزيل المعرفة»[4] فأنىّ له بمعرفة الفرق الغنوصية ليقتبس منها ؟! ولماذا يرهق نفسه بصيام شهر كامل ولا يكتفي بعاشوراء الذي يصومه اليهود ؟

إن صيام رمضان من أركان الإسلام. والصيام في حد ذاته من العبادات المتعارف عليها بين الموحدين على إمتداد الرسالات السماوية. ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[5]. وصيام عاشوراء هو في الأساس سنة أستنها النبي ﷺ لأمته لأنه رأى بأنه أولى بموسى عليه السلام من اليهود الذين يصومون هذا اليوم إحياء لذكرى عبور النبي موسى عليه السلام بهم وخلاصهم من فرعون[6].وفي حديث عائشة ما يفيد بأن النبي كان عارفا بعاشوراء قبل إتصاله باليهود «أن قريش كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية وكان النبي يصومه فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه»[7].

يرى بروكلمان أن معتقدات النبي ﷺ عن اليوم الآخر «ترجع الى مصادر يهودية وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة»[8]. وبما أن بروكلمان يجعل جذور الأفكار اليهودية عن اليوم الآخر وثنية "فارسية وبابلية" فلا غرو أن يذكر أبوالفداء «وليس في التوراة ذكر القيامة ولا الدار الآخرة ولا فيها ذكر بعث ولا جنة ولا نار كل جزاء فيها إنما هو معجل في الدنيا فيجزون على الطاعة بالنصر على الأعداء

*** الحرانيين

نسبة الى مدينة حران وهي مدينة قديمة تقع بين الرها ورأس عين وقد إشتهرت بأنها موطن إبراهيم والصابئة. إشتهرت بأنها مقر عبادة (سن) إله القمر. وبعد دخول المسيحية لم تنجح المجهودات في القضاء على عبادة الأوثان ذلك لأن أهل حران كانوا يعتمدون في معاشهم على المعابد. ولقد ظلت مقرا لعبادة الأصنام رغم وجود الأساقفة فيها. وبها طائفة القائلين بالطبيعة الواحدة. وفي القرن الرابع عشر الميلادي ذهبت ريحها. أنظر دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة عبدالحميد يونس وآخرون، م٧، ص ٣٥٤ - ٣٥٥

(١) History of the Islamic Peoples, P22

(٢) Ibid., p. 21

(٣) Muhammed at Medina, p 199

(٤) Op. Cit., p. 22

(٥) سورة البقرة : اية رقم ١٨٣

(٦) صحيح البخاري : المطبعة الأميرية ، جـ٥، ص٧٠

(٧) نفس المصدر ، ص٤١

(٨) History of the Islamic Peoples, p. 58

وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك ويجزون على الكفر والمعصية بالموت ومنع القطر والحميات والحرب ونحو ذلك»(١). بينما الإعتقاد الإسلامي عن اليوم الآخر يختلف عن ذلك فهو يجعل اليوم الآخر من أركان الإيمان. ويجعل سعي الإنسان في الأرض مربوطا بغاية وهي الحساب في اليوم الآخر. ويتحدث القرآن في كثير من سوره عن اليوم الآخر و«مشاهد القيامة»(٢). يقول سيد قطب «ومع وجود بعض اليهود والمسيحيين في الجزيرة العربية فإن عقيدة اليوم الآخر لم تستطع أن تنتشر في عرب الجزيرة. فظلت فكرة البعث فكرة غريبة تقابل بأشد الإستنكار حينما جاء محمد ﷺ بالقرآن»(٣). مما سبق يتضح للباحث بأنه لا تشابه بين أفكار الإسلام وأفكار اليهودية والنصرانية عن اليوم الآخر.

يواصل وات مناقشة التشريعات الإسلامية فيرى أن رسول الله ﷺ «حلل طعام أهل الكتاب وأباح الزواج من الكتابيات وأن قائمة المحرمات تشبه القائمة التي نجدها في أعمال الرسل "Should be so like thet Acts xv-18" (4) ويذكر «ولا نجد في النصوص الموجودة ذكر يهود تزوجوا من مسلمات وذلك إما لأن هؤلاء كن قليلات وأما أن هذه الزيجات وجدت ثم إنقرضن بعد زوال هذه العادة The is no mention in exant record of jews marring Muslim women, either because there were not sufficient Muslim women, or because there was amention but it dropped out when the practice ceased (5).

إن مسألة التحليل والتحريم إنما مصدرها الله تعالى. ولقد ناقش القرآن إشكالية تحليل وتحريم الأطعمة بإستفاضة(٦). إن الإسلام قد أباح للمسلم زواج الكتابية ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾(٧).لكن لم يبح ـ الإسلام ـ زواج المسلمات من الكتابيين ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾(٨).وأورد ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة «إن جابر بن عبدالله قال:

(١) أبوالفداء: المختصر في أخبار البشر، م١، جـ١، ص١٠٩

(٢) سيد قطب : مشاهد القيامة في القرآن ص٤٩ وما بعدها وأنظر حديثه عن العالم الآخر في القرآن ص٣٧- ٤٨

(٣) المرجع السابق، ص٣٦

(٤) Muhammed at Medina, pp. 199 - 200

(٥) Ibid., p. 201

(٦) أنظر على سبيل المثال سورة البقرة،آيات ١٦٨- ١٧١- ١٧٣.آل عمران، آية ٩٣. النساء، آية: ١٦٠.المائدة،آيات ٣-٥

(٧) سورة النساء: آية ٥

(٨) سورة البقرة : آية ٢٢١

قال رسول الله ﷺ «نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا» وإن هذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه»[١]. وإستشهد السرخسي بالآية المذكورة للتدليل على أن المسلمة لا تحل للكتابي[٢].

إن زواج الكتابي للمسلمة معناه أن تظل المسلمة عرضة لخطر الفتنة في دينها. وبالتالي فإن إحتمال إرتدادها عن الدين وارد باعتبار قوامة الرجل على المرأة. لذلك كان من عناية المشرع بالمرأة المسلمة أن عمل على درء المفسدة. لكن حينما يتزوج مسلم من كتابية فإن هذا الزواج يعود عليها بالنفع وذلك بإخراجها من جماعة الضالين وإدخالها في جماعة المؤمنين ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[٣].ولأن الأخبار جاءت متواترة عن تحريم زواج الكتابي للمسلمة منذ أيام النبي لذلك فلا صحة لما يذكره وات عن زواج المسلمات باليهود ذلك لأن مثل هذه الزيجات لا توجد رواية إسلامية واحدة تدل على حدوثها.

يذكر وات «دعا الى كل ذلك هذه التشريعات في الدين الجديد التي كانت تهدف الى جعله مطابقا تمام للدين القديم عاملان، أولا: الرغبة في إستمالة اليهود ثم التصميم على إظهار صفة النبوة لمحمد بإظهار التماثل في الأصل بين الوحي الذي نزل عليه والوحي القديم " All such ordering of the new religion to make it conform more closely to the older one probably inspired by two motives, the desire for a reconcilation with jews and the desire to substantiate the reality of Muhammad's prophethood by showing the essential identity of his revelation with preceding one"[4] .

وخلاصة آراء وات هي «بالرغم من التنازلات التي كان محمد مستعد لها وبالرغم من جهوده لجعل الدين الجديد مماثلا لدين اليهود لكنهم لم يغيروا موقفهم منه»[٥]. وفي كل الحالات فإن حالات التشابه والإختلاف بين الإسلام واليهودية أدخلت عن عمد»[٦]. وكما أوضحنا سابقا فان المستشرقين لم يضعوا إعتبارا لنبوة النبي ﷺ. وما ذكره وات آنفا يدخل ضمن هذا الاطار. إن ما نلاحظه اتفاق وات وبروكلمان وفلهاوزن في آرائهم، حتى في الآراء الخاطئة وكأن الآراء خارجة من منبع واحد. وليس ذلك بمستبعد «إذ أن

---

(١) محمد نسيب الرفاعي: تيسير العلي القدير لإختصار تفسير ابن كثير، م١، ص١٧٩. وأنظر أيضا محمد علي الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير، م١، ص١٩٤- ١٩٥

(٢) كتاب المبسوط: جـ٥، ص٤٥

(٣) سورة آل عمران: آية ٨٥

(٤) Muhammed at Medina, p. 200

(٥) Ibid., p. 201

(٦) Ibid., p. 203

هناك جهات غربية لضخ المعلومات تتفق في رؤاها تجاه الإسلام والمسلمين»[1]. كما أن المستشرقين يأخذون من بعضهم بعضا فتغدو الأكاذيب من المسلمات ولا يبذل المستشرق - إلا فيما ندر - جهدا للرجوع للمصادر الإسلامية للتأكد من مصداقية الخبر.

يتضح لنا أن الرؤية الإستشراقية لوات وفلهاوزن وبروكلمان جاءت حافلة بالأخطاء المنهجية. فحينما تلتقي الأفكار الإسلامية مع الأفكار اليهودية والنصرانية لا ينظرون لها من زاوية دينية تؤكد على وحدة منبعها وغايتها. وإنما ينظرون للمسألة من زاوية صراع الأديان. وبالتالي تضيع مجهوداتهم العلمية في البحث في من أخذ ممن؟ ومن تأثر بمن؟ ونظرا للموقف الغربي من الإسلام فلابد أن تخرج البحوث الإستشراقية لتؤكد بأن الإسلام أخذ أفكاره ومعطياته من الأديان السابقة. فإذا لم يجدوا لتشريعاته أصلا في تلك الأديان ذهبوا ليبحثوا عن أصولها في الديانات الوثنية أو الحركات الفلسفية كما فعل بروكلمان.

المبحث الثالث

الصراع المسلح ضد اليهود

تطور الموقف داخل المدينة بعد معركة بدر. فتحول الصراع بين المسلمين واليهود من صراع فكري الى صراع مسلح. ولقد كان الموقف الديني والسياسي للجماعتين منذ البداية ينبئ بحدوث هذا التطور. على أن فرص الحل السياسي والديني لإشكالية اليهود كانت متوافرة فقد ضمن دستور الدولة النبوية الحرية السياسية والدينية لليهود. لكن إنتصار بدر كان له دلالاته الخطيرة إذ أن هذا الانتصار خرج بالمسلمين من مرحلة «الاستضعاف»[2]. ووضعهم على أعتاب مرحلة «التمكن»[3]. مما سيؤثر سلبا على الجماعة اليهودية ذات المطامع السياسية والدينية والاقتصادية في الحجاز. يحدثنا وات عن فرص الحل التي كانت متوافرة للقضية «يحق لنا أن نعتقد بأن محمدا في وقت ما خلال السنة الأولى أو الثانية التي قضاها في المدينة فكر بمنظمة دينية وسياسية تضمن شيئا من الوحدة للأمة الإسلامية دون أن يطلب من اليهود التخلي عن عقيدتهم أو أن يعترفوا بمحمد كنبي طلب إليه أن يبلغهم رسالة إلهية. يتفق مثل هذا المشروع مع الفكرة العامة القائلة بأن كل نبي يرسل الى أمة معينة. فيكون محمد أرسل الى العرب. نجد في القرآن آية تدعو لتفاهم قائم فقط على التوحيد (يمكن أن تكون هذه الآية قد نزلت في

(١) المسلاتي: الإستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين. ط١، نوفمبر ٨٦، ص٢٣٥

(٢) أنظر الآية: ١٢٣ من سورة آل عمران ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾

(٣) أنظر الآية: ٥٥ من سورة النور ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي إرتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾

السنة الثانية للهجرة) ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ﴾[1].

إن وات يريد إثبات إقرار النبي ﷺ بالإبقاء على الديانة اليهودية المحرفة وإثبات أقليمية الدعوة الإسلامية. ويترتب على هذا نفي عالمية الدعوة الإسلامية. إن الذي يجب توضيحه هو أن الإسلام لم يأت حربا على الديانتين اليهودية والمسيحية في حد ذاتهما وإنما جاء حرب على الإنحرافات التي لحقت بهما. وفي نفس الوقت جاء مستوعبا للمبادئ الصحيحة التي جاء بها سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام، بحيث يكون الإسلام دينا عالميا ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فأشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾[2].

وجاء الخطاب موجها لليهود ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ﴾[3]. وأيضا ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[4]. وجاء النداء لأهل الكتاب ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾[5]. وقال سبحانه وتعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[6].

وما يؤكد عموم رسالته ﷺ وعالميتها ما جاء في سورة سبأ ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[7]. مما سبق يتضح لنا خطأ وات في جعله للدعوة النبوية دعوة خاصة بالعرب. كما أن إستشهاده بالآية الداعية الى إحداث تفاهم بين المسلمين واليهود لا يخدم ما يرمى اليه من حديثه، ذلك لأن إقرار اليهود والنصارى بعقيدة التوحيد الصافية سيكون من نتائجه إعتراف اليهود والنصارى بدعوة النبي ﷺ. وما كفرت اليهود والنصارى بالنبي ﷺ إلا لإنحرافها عن هذه العقيدة.

---

(١) Muhammed at Medina, pp. 200 - 201
والآية رقم ٦٤ من آل عمران
(٢) سورة آل عمران: آية رقم ٨١
(٣) سورة البقرة: آية رقم ٤١
(٤) السورة السابقة: آية رقم ٨٩
(٥) سورة المائدة: آية رقم ١٩
(٦) سورة آل عمران: آية رقم ١٩. وأنظر الآية رقم ٨٥
(٧) سورة سبأ : آية رقم ٢٨. وأنظر زاد المعاد، م١، جـ١، ص٢٠

إن الصراع المسلح بين الجانبين نشأ على مراحل، بين المسلمين وكل قبيلة يهودية على حدة، وهي قبائل بني قينقاع، وبني النضير وبني قريظة. وسيناقش هذا المبحث صراع كل قبيلة مع المسلمين على حدة.

أ - الصراع ضد بني قينقاع

بدأت هذه القبيلة بالعدوان على المسلمين قبل غيرها من القبائل اليهودية. ولعل مرد ذلك يرجع الى الأسباب الاقتصادية في المقام الأول. باعتبار أن هذه القبيلة قبيلة تجارية «ولم تكن لهم أرضون إنما كانوا صاغة»[١]. ولقد بدأ المسلمون من المهاجرين المكيين ينافسون هذه القبيلة في المجال التجاري. كما أن المبادئ الاقتصادية للإسلام جاءت هي الأخرى حربا على النشاط الإقتصادي اليهودي الذي إعتاد على الربا وأكل أموال الناس بالباطل[٢]. ولقد وصل الإغترار بالقينقاعيين الى الحد الذي جعل بعض قياداتهم الدينية تتعامل مع الله بالمنطق المادي الفج فوصفوه بأنه فقير تعالى عن ذلك ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[٣]. من هذا نستنتج بأن العامل الديني لم يكن ذا أثر في معارضة هذه القبيلة للنبي ﷺ.

يرى فلهاوزن بأن النبي ﷺ «أضطر لاستعمال وسائل غير مقدسة في إخراج اليهود»[٤]. ويذكر «حاول محمد أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد في غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة وقد إلتمس لذلك أسبابا واهية»[٥]. ويكتب بروكلمان «قوى فوز بدر من نفوذ النبي فلم ينقضي شهر على بدر حتى وجه النبى رجاله الى بني قينقاع لقتلهم في الظاهر رجلا مسلما كان قد قتل رجلا يهوديا إثر خلاف جرى بينهما فأضطرهم الى الإستسلام والخروج من المدينة»[٦]. ويكتب وات «وقد إنتهز محمد فورة الحماس للتخلص من بعض جوانب الضعف فهاجم قبيلة بني قينقاع اليهودية بعد أن أدت خصومة تافهة لموت مسلم

"Muhammed fruther used the flush of victory to eliminate some weakness.. abeut the same time the jewish tribe of B. Qaynuqa was attacked after a trivial had led to the death of a muslim'[7] .

(١) تاريخ الطبري: تحقيق أبوالفضل، جـ٢، ص٤٨١. وطبقات ابن سعد، م٢، ص٢٩
(٢) أنظر سورة آل عمران: آية رقم ٧٥. وأنظر سورة المائدة، آية رقم ٤٢
(٣) سورة آل عمران: آية رقم ١٨١
(٤) فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية ، ترجمة عبدالهادي أبي ريده، ص ٢٢
(٥) نفس المصدر: ص١٥- ١٦
(٦) History of the Islamic Peoples, p 24
(٧) Muhammed at Medina, p.. 15

ويرى كذلك بأن الجانب الفكري كان له أثرفي طرد قبيلة بني قينقاع إذ أن النبي ﷺ بعد إنتصار بدر «بدأت تراوده فكرة تحقيق أهداف بعيدة المدى "It is perhaps also the beginning of the realization that, to achieve the distant aim he was beginning to see over the horizon[1].

فهل إخراج بني قينقاع من المدينة كان لأسباب واهية أو خصومة شخصية تافهة؟!.

تذكر الروايات الإسلامية بأنه «كان من أمر بين قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق قينقاع ثم قال: يا معشر يهود أحذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم قالوا يا محمد إنك ترى أنا كقومك ولا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة أما والله لو حاربتنا لتعلمن أنا نحن خير الناس»[٢]. ورد الله تعالى على هذا الموقف ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد ﴾[٣]. وهناك رواية تقول «أنهم أظهروا البغي والحسد»[٤].

تعتبر حادثة المرأة النصارنية القشة التي قصمت ظهر البعير «إن إمرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق قينقاع وجلست الى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده على ظهرها فلما قامت إنكشفت سوءتها فضحكوا منها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فأستصرخ أهل المسلم المسلمين فغضب المسلمون على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع»[٥]. ولقد تشكك ولفنسون في هذه الواقعة «إن ابن هشام لم يروها عن ابن اسحق كما أنها غير موجودة في كتاب الواقدي لذلك فهي متأخرة وغير واقعية»[٦].

إن هذه الخصومة التافهة كما يرى وات لا تعتبر تافهة بالنسبة للمسلمين، إذ أن حفظ العرض يعتبر من الضروريات وهي مقاصد الشريعة الإسلامية. فإذا ما أنتهكت الحرمات فإن للمسلم أن يدافع عن شرفه[٧]. لكن العقلية الغربية التي أعتادت على

(١) Ibid., P. 16

(٢) أنظر ابن هشام: تحقيق السقا، م٣، جـ١١، ص٥٠. ابن سيد الناس:م١،ص٣٨٥.وتاريخ ابن الأثير: الكامل،م٢،ص١٣٧، وتاريخ الطبري، تحقيق ابوالفضل، جـ٢، ص٤٩٧

(٣) سورة آل عمران: آية رقم ١٢

(٤) سيرة ابن سيد الناس:م١، ص٣٨٦. وزاد المعاد: م١، جـ٢، ص٧١

(٥) ابن هشام: سيرة النبي، تحقيق السقا، م٣،جـ١١،ص٥١. ابن سيد الناس: عيون الأثر،م١، ص٣٨٥-٣٨٦

(٦) ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص١٣٠

(٧) الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، جـ٢ كتاب المقاصد، ص٩ وما بعدها

رؤية مظاهر التحلل والتفسخ الأخلاقي قد لا تستوعب حادثة إنتهاك عرض إمرأة مسلمة. ولعل إفرازات هذه الحادثة قد أدت الى نقض بني قينقاع لعهدها مع النبي ﷺ[١]. وكان من الطبيعي أن يجليهم النبي ﷺ من المدينة بعد أن تبرأ من حلفهم الأنصار غير عبدالله بن أبي زعيم المنافقين الذي توسط في أمرهم فتركهم له رسول الله ﷺ فخرجوا من المدينة ولحقوا بأذرعات الشام»[٢].

ب - الصراع ضد بني النضير

إن خيانة بني النضير للمسلمين وتعاونهم مع الجبهة المكية معلومة في المرويات الإسلامية. لكن وات يتشكك مثلا في إستضافة قيادة بني النضير لأبي سفيان أثناء غزوة السويق بعد بدر. يقول وات «وقد أضافه صديق من قبيلة بني النضير كما أمده بالمعلومات «لو صدقنا الرواية» ولكن لا شيء. "Afriend, the chief of the jewish tribe of the Nadir, Gave him a meal and presumably information (if we may trust the account)but nothing more [3] .

حينما يتشكك وات في هذه الرواية إنما يتم ذلك لأجل نفي تورط بني النضير في التجسس لصالح المكيين مما أدى الى تهديد الأمن داخل المدينة. بينما تذكر الرواية الإسلامية «ثم غزا أبوسفيان غزوة السويق.. وكان أبوسفيان قد نذر أن لا يمس رأسه بماء حتى يغزو محمد فخرج في مائتي راكب من قريش فسلك النجدية حتى نزل من المدينة على بريد أو نحوه. ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل فأتى حيى (بن أخطب فضرب عليه بابه فخافه وأبى أن يفتح له بابه فأنصرف عنه الى سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير وصاحب كنزهم فأستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس...»[٤]. ويقول أبوسفيان في ذلك:-

وإني تخيرت المدينة واحدا
لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميتا مدامة
على عجل مني سلام بن مشكم[٥]

(١) أنظر ابن سيد الناس: م١، ص٣٨٦، وأيضا البيهقي: دلائل النبوة جـ٢، ص٤٤١

(٢) ابن سيد الناس: م١، ص٣٨٦. ابن القيم: زاد المعاد: م١، جـ٢، ص٧١. دلائل النبوة جـ٢، ص٤٤١ - ٤٤٤

(٣) Muhammed at Medina, p. 20

(٤) ابن هشام: سيرة النبي، تحقيق السقا وآخرون، م٣، جـ١١، ص٤٧. تاريخ الطبري،تحقيق ابوالفضل، جـ٢، ص٤٨٣-٤٨٤. والبيهقي: دلائل النبوة. جـ٢، ص٤٣٤

(٥) ابن هشام: نفس المصدر السابق، ص٤٨ - ٤٩

وهذا ما يؤكد على موالاة بنو النضير للمكيين والعمل لصالحهم مما يشكل خطورة على الدولة الإسلامية الناشئة.

يكتب بروكلمان عن تطورات الصراع مع بني النضير «وأثرت هزيمة أحد في مركزه ومكانته (النبي) عند البدو المحليين ويظهر ذلك في مقتل أربعين من رسله في قبيلة هوازن وكان على محمد أن يعوض هذه الخسارة التي أصابت مجده العسكري من طريق آخر ففكر في القضاء على اليهود فهاجم بني النضير لسبب واه وحاصرهم في حيهم فأضطروا للإستسلام بعد حصار دام بضعة أسابيع»(١). ويذكر وات عن إنذار النبي ﷺ لبني النضير «بيد أن هذا الإنذار لا يتناسب مع الإهانة أو الإدعاءات الغامضة بصدد خيانة مقصودة»(٢). معنى هذا أن يهود بني النضير كانوا ضحايا لفشل النبي ﷺ في أحد وأن كل ما أثير حول النضير إنما هو مجرد إدعاءات غامضة لا تعكس خيانة مقصودة.

إن إشكالية بني النضير بدأت بطلب النبي ﷺ من النضريين مساعدته في دية الكلابيين من بني عامر. ثم تطورت الى محاولة إغتياله ﷺ. وإنتهت بإجلائهم عن المدينة «قال ابن اسحق: ثم خرج رسول الله ﷺ الى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله عقد لهما وكان بين بني عامر وبين بني النضير عقد وحلف فلما أتاهم رسول الله قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك ما أحببت مما إستعنت بناء عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ قاعد الى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فأنتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله في نفر من أصحابه فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا الى المدينة.. وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم(٣).

وتذكر الرواية «وبعث إليهم رسول الله أن أخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها.. فأرسل إليهم عبدالله بن أبي أن لا تخرجوا من مساكنكم فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من قطفان فطمع رئيسهم حيى بن أخطب فيما قاله له وبعث إلى رسول الله يقول إنا لا نخرج من ديارنا فأصنع ما بدالك

(١) History of the Islamic Peoples, p25

(٢) Op. Cit., p. 211

(٣) ابن هشام: مصدر سابق، م٣، ص١٩٩-٢٠٠. ابن كثير: مصدر سابق، م٢، جـ٤، ص٧٤-٧٦. البيهقي: مصدر سابق، جـ٢، ص٤٤٧. ابن سعد: مصدر سابق، م٢، ص٥٧

فحاصرهم رسول الله وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم»[1]. وعلى ما يبدو إن التآمر على حياة النبي ﷺ كان السبب المباشر في إجلاء بني النضير عن المدينة ولقد هموا بالعدوان على المسلمين ﴿ إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾[2].

بما أن تطورات الأحداث قد حدثت بسبب دية العامريين فإن وات يبدي إستغرابه وإنزعاجه وذلك لأجل نسف القصة مما يؤدي بالضرورة الى نسف ذيولها وتطوراتها «والشيء المحير "The puzzle" إن محمدا يدفع دية قتيلين لعامر بن الطفيل ولا يطالب بدية ما يقارب الأربعين قتيلا من المسلمين الذين كان عامر مسؤولا عن قتلهم»[3]. ولقد كان الأربعون مسلما في جوار أبوبراء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة. فأستعدى عليهم عامر بن الطفيل بني عامر فأبوا أن يجيبوه الى ما دعاهم إليه «وقالوا لن نخفر أبا براء قد عقد لهم حلفا وجوارا فأستصرخ عليهم قبائل سليم وعصية ورعلا وذكو ان فأجابوه الى ذلك فقتلوهم عن آخرهم غير عمرو بن أمية الضمري الذي كان في سرح القوم فخرج عمرو حتى إذا كان بالقرقرة لقى رجلين من بني عامر لهما عقد من رسول الله فعدا عليهما فقتلهما فلما قدم أخبر رسول الله الخبر فقال: لقد قتلت قتيلين لأدينهما »[4].

إن أبا براء لم يكن مسؤلا عن مقتل هؤلاء الدعاة الأربعين لأن جواره قد غفر. ولا كان بنو عامر مسئولين كذلك عن هذه المذبحة لأنهم رفضوا المشاركة فيها، فمن المنطقي أن يدفع النبي ﷺ لبني عامر دية قتيليهما لأنهما كانا في جواره. وقد قتلهما أحد أتباعه لأنه لم يكن عالما بهذا الجوار. ومن غير المستبعد أن يكون بنو النضير قد شاركوا في هذه المذبحة التي تعرض لها الدعاة المسلمون. ذلك لأن تحرك قافلة دعوية من المدينة الى نجد ليس بالأمر الهين، إذ أن هذا يعني فتح المجال أمام التبشير الإسلامي مما سينعكس سلبا على اليهود والمشركين. ولقد كان لبني النضير علاقات مع القبائل النجدية خاصة بني عامر، إذ كان بينهما «عقد وحلف»[5].

ولقد أتهم د. سعفان بني النضير صراحة بمشاركتهم في هذه المذبحة «فدبر يهود بني النضير كمينا لأربعين مسلما ذهبوا يعلمون قبائل نجدية أمور الدين وقتلوهم عن آخرهم ما عدا رجلا أخبر بما حدث فذهب إليهم الرسول ليتحدث بشأن ما جرى فكادوا

(١) ابن القيم : م١، ج٢، ص٧١. البيهقي: ص٤٤٨. ابن سعد: م٢، ص٥٧

(٢) سورة المائدة: آية رقم ١١. وأنظر كتب التفاسير

(٣) Muhammed at Medina, p. 32

(٤) تاريخ الطبري: مصدر سابق، ج٢، ص٥٤٦ - ٥٤٧

(٥) ابن هشام: مصدر سابق، م٣، ص١٩٩. الطبري : ج٢، ص٥٥١

يقتلوه بصخرة تلقى من فوق جدار»[1]. ويكاد وات رغم كل ما ذكره أن يتفق مع طرح د. سعفان فهو يقول «ولما كانت النضير حليفة عامر فلاشك أن تعقيدات نتجت عن ذلك وإن كانت المصادر لا تتحدث عنها»[2]. إذن فلم يكن إخراج بني النضير من المدينة لأسباب واهية أو تافهة كما يرى وات وبروكلمان.

جـ - الصراع ضد بني قريظة

على الرغم من أن قبيلة بين قريظة كانت «قد عقدت معاهدة مع النبي»[3]. إلا أنها قد تآمرت مع الجبهة المكية - الغطفانية لأجل القضاء على الدولة النبوية فيما عرف تاريخنا بغزوة الأحزاب. ولقد «قام يهود بني النضير في خبير بتجميع الأحزاب»[4]. ويذكر وات «عمل يهود بني النضير الذين طردوا الى خيبر ولج بهم الحنين الى العودة لأراضيهم في المدينة على جمع هذه المحالفة فوعدوا بني قطفان إذا إشتركوا في القتال بنصف محصول التمر في خيبر»[5].

يذكر بروكلمان «هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على أي حال فأستسلموا بعد حصار دام إسبوعين»[6]. ولكن سلوك القريظيين أثناء حصار الأحزاب للمدينة لم يكن غامضا على كل حال. بل كان في غاية الوضوح. فبعد أن مناهم حيى بن أخطب النضيري بالوعود أعلنوا عن نقضهم للعهد الذي بينهم وبين النبي، فشكلوا بموقفهم خطورة على المسلمين داخل المدينة وذلك من خلال تواطئهم مع الأحزاب. ولقد تحدثنا سابقا عن هذا الموقف[7]. ويصر وات على «إن هنالك مؤامرات دارت حول قريظة ويبدو أنها عقدت معاهدة مع محمد وإن لم يتضح ما إذا كان عليها أن تساعد عند وقوع هجوم على المدينة أم أنها تبقى على الحياد»[8]. لكن فات على وات أن قريظة لم تبق على الحياد ولا ساعدت المسلمين وإنما شاركت في الغزو الى جانب الأحزاب.

يتشكك وات في مقدرة النبي ﷺ على إتخاذ موقف ضد القريظيين «وكذلك مسألة معاقبة قريظة على خيانتها لم يغامر محمد في إصدار حكم بنفسه فلو أنه قرر

(١) د. كامل سعفان: اليهود تاريخا وعقيدة، ص٣٤

(٢) Op. cit., p. 211

(٣) ابن سعد: الطبقات، م٢، ص٧٧. وأنظر ابن حزم: جوامع السيرة ، ص١٨٧

(٤) ابن سعد: م٢، ص٦٥ - ٦٦

(٥) Muhammed at Medina, p. 36

(٦) History of the Islamic Peoples, p26

(٧) أنظر المبحث الأول من هذا الفصل. وأنظر سورة الأحزاب لمعرفة الموقف داخل المدينة أثناء غزوة الأحزاب

(٨) Op. cit., P.38

سفك دماء قريظة لدعا الشرف بعض حلفاء اليهود ولو كانوا مسلمين الى الثأر لهم ولهذا ترك تقرير العقوبة الى زعيم القبيلة التي كانت قريظة حليفة لها »[1]. إن وات هنا يكتب بمنطق الجاهلية ومفاهيمها في الوقت الذي تشكلت فيه عقلية الأنصار بمفاهيم جديدة جعلت الولاء للعقيدة فوق كل ولاء[2].

إن النبي ﷺ لم يكن عاجزا عن إصدار الحكم ضد القريظيين. ولكن الأوس توسطت لدى النبي ﷺ في أن يعفو عنهم «فقال لهم ﷺ: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ »[3]. وكان «الخزرج فيما مضى قد توسطوا في أمر بني قينقاع»[4]. إن وات نفسه يذكر هذا الخبر لكن بعد أن يشكك فيه «يقال بأن بعض الأوس طلبوا الى محمد أن يعفو عن قريظة إكراما للأوس وقد أجاب محمد على طلبهم أن أقترح بأن يقرر مصير اليهود أحد حلفائهم فقبلوا فعين محمد حكما سعد بن معاذ زعيم الأوس»[5]. فهذا الموقف يحسب لصالح النبي ﷺ لا عليه، إذ أنه مسلك يدل على قمة العدالة.فلو أن النبي ﷺ أصدر الحكم الذي أصدره سعد لتم التشكيك في نزاهته بإعتباره طرفا أساسيا في القضية. لكن هذا الحكم الذي أصدره سعد حليف القريظيين فحسب الظاهر كان في إمكان سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يصدر عفوه عن القريظيين . لكن سعد رضي الله عنه لم تأخذه نخوة الجاهلية فأنحاز لعقيدته إنحيازا مطلقا «أن لسعد أن لا تأخذه لومة لائم»[6]. ولقد أشاد النبي ﷺ بموقف سعد رضي الله عنه «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[7].

لقد كان من متطلبات المرحلة تأمين المدينة من المؤامرات اليهودية. لذلك فقد قاد النبي ﷺ حملة على خيبر. ذلك لأن يهود بني النضير هم الذين «ألبوا الأحزاب»[8]. ومن غير المستبعد أن يقوموا بتحريك الأحزاب من جديد. إذ أن وجودهم خارج دائرة نفوذ دولة النبي ﷺ يعطيهم القدرة على الحركة في منطقة الجزيرة العربية وبالتالي يقومون بتطويق دولة المدينة وعرقلة النشاط الدعوي للدولة الإسلامية. ولقد صارت خيبر مركز للمؤامرات والدسائس ضد الدولة الإسلامية الناشئة. إذ أن خيبر كانت مركزا

---

(١) Ibid., P. 229

(٢)كمثال لمعرفة النهي عن موالاة المشركين أنظر الآية ٢٨ من آل عمران والآية ٤٤ من النساء

(٣) تاريخ ابن خلدون : م٢، القسم الرابع، ص٧٧٨، ابن سعد: الطبقات، م٢، ص٧٥

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، م١، ص٣٨٦. ابن القيم: زاد المعاد:م١، جـ٢، ص٧١. البيهقي:دلائل النبوة: جـ٢، ص٤٤١ - ٤٤٢

(٥) Muhammed at Medina, p. 214

(٦) ابن هشام: سيرة النبي ، تحقيق السقا، م٣، ص٢٥٠

(٧) ابن خلدون : م٢، القسم الرابع ص٧٧٩. ابن سعد: م٢، ص٧٥. ابن هشام:م٣، ص٢٥١

(٨) أنظر ابن سعد: م٢، ص٦٥-٦٦. وأنظر Watt: Muhammed at Medina, p. 36.

لتجمع يهود بني النضير وكان لبني النضير ثأرات مع دولة المدينة التي طردتهم من المدينة ونتيجة لهذا الثأر وغيره من الثأرات فقد قاموا من خيبر بمحاولات عديدة لتأليب القبائل العربية ضد دولة المدينة. وظهر ذلك جليا في غزوة الأحزاب. ولقد كانت خيبر في حالة رخاء تمكنها من تمويل أي حركة معارضة للدولة النبوية. ومعنى ذلك أن خيبر صارت مركزا لتهديد أمن الدولة النبوية. فأقتضت المصلحة البدء بها في المرحلة الجديدة التي أنتهجتها الدولة النبوية وهي المرحلة الهجومية.

ولقد كانت خيبر على الدوام تتربص بدولة النبي ﷺ. وقد كان العامل الدعوي عاملا مهما في سياسة النبي ﷺ لذلك يبدو وات مبالغا حينما يعزو الهجوم على خيبر للأسباب المادية «وكان هجوم محمد على خيبر في يونيو ٦٢٨م بعد غزوة الحديبية بوقت قصير في فترة يهمه فيها أن يحصل على الأسلاب لتوزيعها على الأتباع الذين خابت آمالهم من هذه الناحية في الحديبية»(١). ويواصل «ومما لاشك فيه إن غنى اليهود كان عونا كبيرا لمحمد وحسن كثيرا وضعه المالي ولاشك أن ترقب مساعدة مالية أثر في النبي لتحديد وقت الهجوم على اليهود ولكن السبب الرئيسي للنزاع بين الفريقين دينيا»(٢). وأما بروكلمان فإنه يعزو هجوم النبي ﷺ على خيبر «للتعويض عن فشله في الحديبية»(٣). وسواء كان السبب ماديا كما يرى وات أو إنتقاميا كما يرى بروكلمان فلماذا قصد النبي ﷺ خيبر بالذات؟ يكفي التحليل الذي ذكرناه سابقا للتدليل على خطل آراء وات وبروكلمان.

قبل أن نختم هذا الفصل فلنرى تمنيات وات لما كان ينبغي أن تكون عليه العلاقات الإسلامية - اليهودية في ظل الدولة النبوية «من المفيد أن نتخيل ما كان يحدث لو أن اليهود أنضموا الى محمد بدلا من معاداته. وكان في بعض الأوقات في الإمكان أن يحصلوا منه على شروط مفيدة ومنها الإستقلال الديني فتقوم على هذا الأساس إمبراطورية عربية يؤلف اليهود جزء منها ويصبح الإسلام بذلك طائفة يهودية ولتغير وجه العالم اليوم ".. And on that basis the jews might nave become parners in the Arab empire and Islam a sect of Jewry"(4).

مما لاشك فيه أن هذه الرؤية تعايش واقع الصراع العربي - الإسرائيلي. ومن حق المؤرخ أن يستفيد من أحداث الماضي لمعالجة إشكاليات الحاضر، وإن كان وات مخطئا

(١) Muhammed at Medina, p. 218

(٢) Ibid., P. 220

(٣) History of the Islamic Peoples, p. 28

(٤) Muhammed at Medina, p. 219

في رؤيتـه التي تريد أن تجعل من الإسـلام مـجرد طائفـة في الديانـة اليـهـوديـة وليس العكس. فالإسلام بشموليته جاء مستوعبا لمتطلبات البشرية ماضيا وحاضرا ومستقبلا. بينما اليهودية جاءت محدودة بزمان وقاصرة على شعب هو الشعب اليهودي. ولم تعد تلبي حاجات هذا الشعب.

لقد كـان في الإمكان التـعـايش بين المسلمين واليـهـود في ظل الدولة النبـوية، لولا التـركيـبـة المزاجية والنفسيـة لليـهـود، وعـقـيـدة «شعب الله المختـار»* التي حجبت عنه الرؤية وجعلتهم ينغلقون على الذات مجترين لمفاهيم توارتية منحرفة أضلتهم عن طريق الله سبحانه وتعالى. وحيـنما جاء الإسلام ليكون للناس كافة عجزت العقلية اليهودية عن إستيعاب مضامين الخطاب الإسلامي لأسباب عنصرية ودينيـة غذتهـا المفاهيم التـوراتيـة المحرفـة[1]. ولقد عجزت العقليـة الإستشراقيـة نفسها ـ وهي تناقش الصراع الإسلامي ـ اليهودي بخلفياته وتطوراته ومآلاته ـ عن إستيعاب هذه الخلفيات والمسببات والتطورات والنتائج للصراع الإسلامي ـ اليـهـودي في ظل الدولة النبـوية فكان أن خرجت البحوث الإستشراقيـة في هذا المجال وهي فـاقدة للمصداقيـة وذلك لإنعدام مركز الرؤية الصحيح لدى المستشرقين كما أوضحنا.

---

* نظرا لأن غالبية الأنبياء من اليهود ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ﴾ سورة المائدة آية رقم ٢٠ ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ البقرة ١٢٢. فقد دفعهم ذلك للتعالي على الآخرين ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ المائدة آية ١٨. ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ البقرة آية ١١١. ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ البقرة آية ٨٠. وأنظر الآية ٢٤ من آل عمران ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ البقرة آية رقم ١٣٥. ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ آل عمران آية ٧٣

(١) تتحدث آيات كثيرة عن تحريف التوراة مثل ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ البقرة آية رقم ٧٥. ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ﴾ المائدة آية رقم ١٣. ﴿ وإتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ البقرة آية رقم ١٠٢